**التعامل الثقافي بين الفارسية و العربيه**

**(دراسة حول الكلمات المستعارة )**

العلاقات العربية الفارسية على مختلف الصعد كثيرة عريقة وطيدة بدأت قبل الاسلام بقرون و استمرت بأشكال مختلفة جدا حتى يومنا هذا. إننا نعرف أن الدراسات حول هذا الموضوع أصبحت اليوم كمّية ضخمة قام بها العلماء العرب و المستشرقون و الايرانيون . و فيما يخصّني انا ، فانّي بذلت جهدي و حاولت أن اساهم الدارسين في هذا المجال فكانت نتيجة مجهوداتي مقالات كثيرة و عدّة كتب منها *سبل نفوذ الفارسية في... اللغة العربية...* الذي ترجمه إلى العربية أستاذ سوري ، و كتابي الأخير *الصراع بين الفارسية و العربية* الذي نشر قبل أشهر.

فاعتمادا على هذه التجربة ، اقدم الى حضراتكم بحثا لغويا تأريخيا أشير أثناءه اولا الى أهمية الألفاظ المستعارة ( إي المعّربات و المفرسات لو صحّ التعبير) و كيفيتها حسب الأزمنة التأريخية من جهة و حسب المستويات الثقافية من جهة أخرى، ثم أتناول بالبحث المفردات الايرانية التي عرّبت عبر التأريخ من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري و أخيرا أتطرق الى موضوع الألفاظ العربية في اللغة الفارسية :

اللفظ ككائن حيّ يولد في مجتمع خاص و زمان محدد ، و ينمو في بيئته و يعيش مدة قد تبلغ القرون الطويلة و قد لا يتعدّى السنوات القصار. اذاً فاللفظ ينتقل في الزمان دائما و في المكان أحيانا يتطور روحا و جسما – اي دلالة و قالبا – بتغيّر الزمان و المكان.

فبناء على هذا، لو أردنا أن نفهم معنى كلمة ما فهما جامعا دقيقا يجب علينا أن ندرسه في مواضعه الزمنية المختلفة ، و في مساره الطبيعي . و أن أخرجناه من هذا المسار فنكون قد نزعناه من الدوائر الدلالية التي تحيط به و جعلناه عاريا مجردا من معناه الحقيقي و اكتفينا منه بمادة ابتدائية تدل على مفهوم عام تجريدي.

و بعد هذه الملاحظة السريعة، يمكنني أن أوجّه نقدا او شبه نقد إلى علماءنا القدامى و الى كثير من المعاصرين الذين دونوا تلك القواميس الضخمة المثيرة للاعجاب .

غير أنّ هؤلاء ، عند اختيارهم الكلمات لقواميسهم ، أخرجوها من مواطنها القبلية و جرّدوها من معاييرها التاريخية و ايحاءاتها و الهاماتها الدلالية . هكذا، عندما ندرس المفردات في تلك القواميس ، كثيراما نجد أنفسنا أمام كمية هائلة من المفردات يسودها نوع من الابهام، و ننتظر خلالها شاهدا شعريا يأتي ليسلّط ضوءا على بعض جوانب الكلمة. انّ القواميس الخاصة بالمعربات لاتختلف عن المعاجم العامة الا أنها تهتم باشتقاق الكلمة اهتماما مستمرا. فهي لاتدع كلمة إلا و تجد لها اصلا غير عربي . غير أن علماء المعربات قد أهملوا جانبين مهمين من العملية المعجمية. الاول انهم لم يحفلوا باللغات الاجنبية سامية كانت ام هند–اروبية الا في القليل النادر و اكتفوا بالفارسية التي كانت شائعة كل الشيوع ليس في البلاد الايرانية فحسب و انما في العراق كذلك.

النقطة الثانية التي تؤخذ عليهم هي هذه المنهجية الغريبة التي انتهجوها للحصول على اصول الكلمات: انهم يعتمدون في ذلك عادة على الذوق و الخيال. الأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بمثال استخرجناه من *الصحاح* للجوهري:

نحن نعرف كلمة البريد التي تستعمل في البلاد لعربية استعمالا شائعا ومن المحتمل أن تكون معربة عن كلمة رومية الاصل (beridis ). غير انّ علماءنا القدامى ذهبوا مذهبا آخر و بما انّ فكرة البريد كانت قد استعيرت من النظام الساساني، فخيل اليهم ان الكلمة لا بدّ أن تكون معربة عن الفارسية الفهلوية ايضا. ولكنهم عند البحث عن اصلها الفارسي لم يجدوا الا هذا التركيب الغريب الذي هو : « بريده دم » (مقطوع الذنب) و ظنوا انّ الايرانيين كانوا يقطعون أذناب الخيل لتجري جريا أسرع. غير انّ نظريتهم هذه تواجهها مشكلتان رئيسيتان احداهما صرفية و الأخرى معنوية:

١– ان تركيب « بريده دم » الفارسي تركيب دري متأخر، و اما كلمة البريد فهي وردت على الاقل خمس مرات في الشعر الجاهلي، و معنى ذلك انها عرّبت عن كلمة فهلوية قديمة تختلف كل الاختلاف عن شكلها الدري ، و قد تكون – حسب مكنزي – بريدک دمب (burridak dumb) و من المستحيل – حسب قواعد التعريب و الاصول الفونطيقية و الاصواتية – أن يتحول هذا التركيب الفهلوي القديم الي البريد العربي.

٢- ان الله تعالي خلق الخيل و جعل لها ذنبا طويلا تدفع به الحشرات المؤذيــة عــن جسمها . فهل يمكن ان نتصور انّ عقلية آباءنا كانت تسمح لهم ان يقطعوا ذنب حيــوان خدم الانسانية خدمة لا مثيل لها طول حضارته العريقة ؟

فلنعد الآن الى الكلمات نفسها و كيفية عرضها في المعاجم. من المعلوم انني لا اريــد ان أتطــرق الــي الدراســات الحديثــة التــي تعــرف بـــ lexicology اي المعجميــة و lexicography اي المعجماتية (كما اصطلح عليــه المغاربــة ) او التحلــيلات الخاصــة باللسانيات ، و انما اريد الآن أن ألفت نظر طلابنا الأعزّاء الي أنّ **الكلمة** تلعب دورا هاما في مجالات معرفتنا . انها تعطينا اضافة الي المادة الدلالية الاصلية للكلمة ، معلومات عديــدة عن المحيط الذي تعيش فيه ، و تحدد لنا موقعها التأريخي؛ انها تــوحي بايحــاءات مختلفــة تزيدنا فهما بالمجالات الدلالية للفظ .

ينتج مما عرضناه انّ قواميس المعربات اذا كانت مجرد قائمة للمفــردات، فانهــا لا تجدي نفعا و لا تغني عنا شيئا لان الكلمات فيها تنحصر في دائرة ضيقة النطاق لا تسمح لها ان تفيض بالمعلومات التي كانت تفيض بها من قبل.

و معني ذلک كله اننا اذا اردنا أن نفهم معني الكلمات المــستعارة فهمــا ثقافيــا و تأريخيا يجدر بنا أن نترک المعاجم جانبا و أن نقرأ المفردات في بيئتها الاصلية.

اسمحوا لي أن آتي بأمثلة توضح الموضوع ايضاحا أكثر:

أتذكر ان طالبا من طلاب العربية كتب لي في انشاءه انّه ينظر صباح كل يوم *فــي السجنجل* وكان يريد المرآة. و فعلا نلاحظ ان *المنجد* يشرح الكلمة كما يلي: «الــسجنجل ، المرآة (يونانية )». غير اننا نعرف ان الكلمة لم تستعمل في العربية الا مرة واحدة و ذلــک قبل ١٥ قرنا في شعر أمريء القيس.

فلنأت بمثال أكثر جدية:

لو قلت لكم ان كلمة « چنگ » الفارسية آلة موسيقية ذات اوتــار كثيــرة و هــي بالفرنسية « هارپ » و باليونانية « لير » و عربت بـ*الصنج* في البلاد العربية ، أكون قد اعطيتكم معلومات معجمية محددة ناقصة غير مقنعة . فانكم قد تطرحون علي أسئلة أخــري عن زمان تعريبها و مكانه، عن اول من استعملها من العرب، عن المجتمع الذي كانت الآلة

رائجة فيه ، و من ثم عن المجتمع الذي كان في حاجة اليها ، و هل يمكن ان يكون البدويدن هم الذين استعاروه أم المستعير هو مجتمع الظرفاء العباسيين في بغداد ؟

و لكنا اذ قمنا بدراسة سياقية ( contextual )للكلمة و قرأناها في بيئته الخاصة، اي في النصوص المتعلقة بها، لرأينا ان الدائرة الدلالية للكلمة قد اتسعت اتساعا يمكّننا من ان نحصل علي معلومات كثيرة جديدة ،منها : ان الاعشي قد يكون اول من عربها؛ انها عربت في القرن السادس لميلادي في الحيرة ؛ ابناء الحيرة هم الذين تعرفوا علي الفنون الموسيقية الساسانية و عربوا كثيرا من الكلمات المتعلقة بذلک ؛ هذا الفن المتقدم فن حضري لا يعرفه البدو؛ ان هناک نوعين من الصنج: الوتري ( لير ) و النحاسي (سنج )...

بعد هذا العرض المسهب يمكن القول بان معاجم المعربات – قديمة كانت أم جديدة – لا تشكل في الحقيقة الا قائمة عظيمة للمفردات، لا تعطي الكلمة حقها من الايضاح و تغفل الابعاد التأريخية و الحضارية لها،و بعبارة اخري انها لا تغنينا عن غير ها من الدراسات العلمية . و ان سألتموني عن فائدة هذه المعاجم لقت انها تفيدنا في الامور الاحصائية افادة عظيمة، لاننا مضطرون الي احصاء الكلمات قبل تبويبها تبويبا ابجديا او معنويا و دراستها دراسة دلالية.

الدراسات القديمة و الحديثة

ان عدد الكتب التي ألفت حول المعربات ابتداء من الجواليقي في لقرن السادس الي أدّي شير ثم المرحوم امام شوشتري و اخيرا آلتونجي في سوريا، قد يتجاوز الخمسين ، و اما مقالات المعاصرين في هذا الموضوع فلا تحصي غير انها مع الأسف الشديد لا تتعدي الصعيد اللغوي و الاحصائي و لا تعلق اي اهتمام الي الجانب السمانتي (semantic )و الدلالي .

نظرة جديدة الى المعربات

اني أتصور أنه من الضروري أن نقسم المعربات تقسيما تاريخيا و ان نعين لها عصورا محددة تبدأ من العصر الجاهلي. العصور التي اقترحها أنا، هي: العصر الجاهلي، العصر الأموي، العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني، العصر الأيوبي و المملوكي، العصر المغولي و أخيرا العصر العثماني المتأخر.

(الجاهلي)

إني قمت بدراسة واسعة عن الشعر الجاهلي و عثرت فيه علي أكثر من مائة كلمة فارسية تتجلى بأشكال جد مختلفة و لقد تسرب القليل منه مباشرة من الفارسية في العربية و الأكثر دخلها عن طريق الآرامية و العبرية و السريانية.

هذه الكلمات تكاد تنحصر في إطار المدنية المادية لانجد فيها مفردة تعبر عن معنى فلسفي أو أخلاقي، في حين نجد ثمانية ألفاظ في الموسيقى، إحدي عشرة كلمة في الزهور و ما يرتبط بها، عشر كلمات في الأزياء و الأقشمة.

(الإسلامي)

فيما يتعلق بالقرآن الكريم فإنه يحتوي على ما يقارب ثلاثين كلمة فارسية استعملت أكثره (تقريبا عشرون كلمة منها) في الشعر الجاهلي من قبل، و منها سبع كلمات (تقريبا) عدّها جفري فارسية، ولكني يصعب علي إثبات فارسيتها (كـ عفريت). و هناك كلمات أخري غيرمعروفة من المفضل أن نعتبرها من أصل غيرإيراني كـ كأس، سجّيل، سجّين...

(عصر الخلفاء و الأمويين)

ليس من السهل إحصاء المعربات في عصر الخلفاء و الأمويين؛ إن الكلمات التي كانت في أغلبيتها مرتبطة بالسياسة و الحكومة أو البلاد المفتوحة لم يسمح لها بالدخول في العربية الفصحى (أي عربية الخطب الرسمية و القصائد الكبيرة)؛ إنها لبثت قرنا أو قرنين حتى الكفاحة اللغوية اللازمة للدخول في الأدب الفاخر.

(العصر العباسي ١)

ماإن وصلنا إلي العصر العباسي الذي سماه الجاحظ العصر الفارسي حتى تدفقت الكلمات الفارسية في العربية تدفقا أثار القلق في قلوب بعض المتعصبين للعربية. إني اخترت لهذه

الفترة الزمنية الشاعر الكبير أبانواس كعيّنة للتحقيق فقرأت المجلدات الأربعة لطبعته الألمانية الأخيرة و استخرجتُ منها أكثر من مائتين و سبعين معربة قسمتها إلى ثلاثة أقسام:

١. الكلمات المعربة الجاهلية التي اصطبغت بصبغة عربية و احتلت المكان الذي تستحقه في المعاجم (ستون كلمة معربة).

٢.الكلمات التي عربت خلال القرنين الأول و الثاني و استعملت استعمالا شائعا: إنها طائفة من الألفاظ كانت تتدفق كالسيل علي اللغة العربيه طوال تلك الفترة و لاشك أن لها أهمية كبرى لدراسة المجتمع المتحضر الغني العربي خلال تلك القرون و ذلك لأن الكلمات كلما أتيح لها أن تنتقل من مجتمع إلي آخر، فإنها لاتنتقل مجردة عن مسمياتها: الأشياء التي تدل عليها تلك الكلمات، هي التي تلفت النظر المجتمع المقترض. فمثلا استعمال كلمة الصولجان عند أبي نؤاس يدل على أن أبناء الدولة كانوا يمارسون هذه الرياضة في بغداد.

النقطة التي تتطلب إشارة جديدة هي أن تلك المعربات كأخواتها الجاهلية لاتكاد تتجاوز الصعيد المدنية المادي و خاصة الجانب الأشرافي منه. إنها تبلغ في ديوان أبي نؤاس المائة تقريبا و تدل في غالبيتها على أنواع الأطعمة و الأزياء و الأقمشة و الأزهار و الألعاب و آلات الحرب و الصيد و الرياضة و الأعياد و المجوهرات ... و ما إلى ذلك من المعاني .

٣. و في الديوان طائفة عظيمة من الكلمات احتفظت بميزاتها الإيرانية فبقيت فارسية رغم ورودها في شعر أبي نؤاس، إذ أبت العربية الفصحى أن تفتح لها أبواب معاجمها (إلا عدد الكلمات الاستثنائية). إني أحصيت أكثر من مائة و ثلاثين كلمة من هذا النوع. بناء على هذا إن جعلنا هذه المجموعات في قائمة واحدة و أضفنا إليها الأعلام و الأسماء الإيرانية لتجاوز عدد معربات أبي نؤاس ثلاثمائة كلمة.

(العصر العباسي ٢)

فيما يخص العصر العباسي الثاني فقد ركزت اهتمامي علي كتاب *حكاية أبي القاسم البغدادي* الذي يعتبر الرواية الوحيدة التي أنتجها التراث العربي في القرن الرابع. هذه الحكاية تحتوي علي مجموعة كبيرة من المعربات قسمتها كعادتي مع المجموعات الأخري إلي ثلاثة أقسام:

١. الكلمات المعربة الجاهلية، عددها أربعون كلمة تقريبا و هي بالضبط نفس الكلمات المستعملة عند أبي نؤاس.

٢. المعربات العباسية فيه تقارب مائة و أربعين مفردة، و معنى ذلك أنها ازدادت بأربعين كلمة معربة جديدة بالنسبة إلى القرن الثاني. غير أن هذه المجموعة تنقصها بعض المعربات النؤاسية: فمثلا كلمة الآيين المعروفة في القرن الثاني أصبحت مفردة شاذة في القرن الرابع. و أما مثال الجديد من المعربات فكلمة **الناورد** (ميدان لترويض الخيل) أو **الهزار** بمعنى البلبل.

٣. الفارسيات أو المعربات التي استعملت لأول مرة في العربية ثمانون كلمة تقريبا. نذكر منها كنموذج، كلمة **الشُستكة** (= المنشفة) التي كانت لاتزال تستعمل في القرن الخامس و السادس.

نظراً إلي أن القرن الرابع من أكثر القرون إنتاجا و من أغناها أدبا و علما رأيتُ أن لاأكتفي بكتاب واحد فيه. فتناولت بالدرس كتاب *نشوار المحاضرة* للقاضي التنوخي (متـ : ٣٨٤ق) الذي اختار لكتابه نثرا مرنا ساذجا طلقا عفويا لايهتم بالصناعات الأدبيه أبدا كما لايتجنب بعض التراكيب العامة البغدادية و إن كانت تخالف القواعد النحوية.

ولاشک أن لغة التنوخي النشطة الحية الفعالة لاتحتوي إلا على كلمات تستخدم في المجتمع استخداما مستمرا، ومعنى ذلک أن معربات هذا الكتاب كلمات معروفة رائجة بين الناس و إن كانت لاتزال تُمنع من الدخول في المعاجم الرسمية. إليک الأقسام الثلاثة للمعربات:

١. إني أحصيت في هذا الكتاب ستا و ثلاثين كلمة معربة جاهلية. و هنا ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أن عدد المعربات الجاهلية أخذت تقلّ بالنسبة إلي عصر أبينؤاس.

٢. عدد المعربات العباسية فيه مائة وثماني كلمات ورد أكثرها (أي سبعون بالمائة حسب تقديري) في *حكاية أبي القاسم* و ديوان أبي نؤاس.

٣. أما الكلمات النادرة الاستعمال، أو التي استعملت لأول مرة في *نشوار المحاضرة* فعددها ست و ثلاثون كلمة، أي إنها نصف الكلمات المعربة الجديدة في *حكاية أبي القاسم* . و معنى ذلک أن عملية التعريب أخذت تتباطؤ لتستعيد نشاطها في العصر الأيوبي.

إني كما أشرت في بداية مقالي أقف عند هذا الحد أي القرن الخامس ولكني ختاما لهـذا البحث أقدم إليكم بضع كلمات قد يكون القاضي التنوخي أول من عرّبها:

١. جاشنكير، معربة عن چاشني گير: رئيس الطباخين في بيـوت الأغنيـاء، غيـر أن التنوخي استعملها بمعنى القدح الكبير للخمر. و من الطريف أن بيبـرس أحـد ملـوك البرجية في القرن الثامن لـُقب بجاشنكير.

٢. جوانبيرة: معربة عن جوان – پيره: الكهلة من النساء.

٣. جوامُرک: معربة عن جوان – مرغ: الفتى من الطير، الفرخ.

٤. الدوباركة: (معربة عن ؟) دُمية كبيرة تتخذ من القماش علي قدر الـصبيان يجعلهـا البغداديون في سطوحهم ليالي النيروز.

٥. كـَردَناک/ كـَردَناج، معربة عن گردناک: يسميه البغداديون اليوم بلحـم القـص أو شاورما (كباب تركى).

هل يمكن إحصاء المعربات إحصاءً غيرَبعيد عن الواقع، هل يمكـن أن نخمـن عـدد المعربات تخمينا مقبولا؟ إن هناک عالما سوريا يذهب إلي أن المعربات تبلغ أربعة آلاف كلمة و لكني لاأرى رأيه و بعد إحصاء الكلمات في عدد من كتب المعربات أعتقد أنهـا لاتتجاوز ألفين و خمسمائة كلمة.

والسلام